رؤوس الشياطين

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ١٤٠٤٣/ ٢٠١٩
الترقيم الدولي: I.S.B.N
978-977-764-149-9

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل الصوتي والمرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الطرق إلا بإذن خطي من الكاتب

دار المعرفة للنشر والتوزيع
خلف جامع الأزهر - بجوار مسجد عليش
ت: ٠١٠٠٨٥٨٤٨٢٠ - ٠١١١١٣٢٢٦٦٨ - ٠١١٤١٢١٢٨٠٥
Email.elmarefa@hotmail.com

أيمن الهتوم

رؤوس الشياطين

دار المعرفة

(١)
الخَمرة لا تُحبّ مَنْ لا يُحبّها

ماتتْ أُمّه العام الفائت، ودُفِنَتْ في المقبرة الفوقا إلى جانب أَخَواتِها السّتّ؛ كانتْ أصغرهنّ، وآخرهنّ موتًا. دُفِنتْ كُلُّ أُختٍ إلى أختها مُتجاوراتٍ في صَفٍّ مُنتظَم، كما لو كُنّ يُعلِنَّ أنّهنّ اتّحدْنَ في المأساةِ قبل الموتِ وبعدَه، أو رُبّما كُنّ يَقُلن: «ما بَعثرتْه الدّروب تجمعه القبور».

النّوم نِعمة. النّوم نِقمة. النّوم قاتِلٌ إذا أقبل، وقاتِلٌ إذا أدبر، وقاتلٌ إذا رضي، وقاتلٌ إذا سَخِط، محبوبةٌ غير مُطيعة، وخليلةٌ غير واصِلة، ومُشتهاةٌ مُتمنِّعة، وقريبةٌ بعيدة!! كيفَ ينامُ ذو هَمّ. لكنّ الهموم مثلُها مثلُ أيّ شيءٍ آخَر خلقَه الله، تنتهي، فلماذا لا يزوره النّوم بعدَ ذلك؟! ولكنْ: هل فِعلاً تنتهي الهموم؟!

لم ينمْ منذُ عشر سنين، ليس على سبيل المجاز، بل على الحقيقة، كلّما ألقَى بجسده المُنهَك على الفِراش، فتّحَ الأرقُ عينَيه، كأنّ بينه وبين الغَمض حربًا. اللّيل في الصّيف حارّ، ومن هنا في هذه الغرفة الّتي استأجرها في فندقٍ رخيص وسط البلد تفوحُ بعضُ الرّوائح الكريهة. لعنَ الفقر، والحاجةَ، والحظّ، والفندق، وصاحبَ الفندق، والنّوم، وهمّ بأنْ يلعنَ نفسَه، قبل أنْ يتراجَع، ويقلبَ على جنبه الآخَر، أغمضَ عينَيه في محاولةٍ جديدةٍ لكي ينام، لكنّهما تأبّتا عليه، فَكّر في الحقيبة الجلديّة الحليبيّة الّتي يحتفظُ بها في خِزانة الغرفة، خُيّل إليه أنّ أحدًا سرقَ شيئًا من محتوياتها، فقفز على قدمَيه مذعورًا، ركضَ باتّجاه الخِزانة، فتحها

بسرعة، وشدّ سَحّاب الحقيبة العتيقة، وأزاحَ بيدَيه أطرافَها وارحَ يتفقّد موجوداتها بعناية، بعدَ دقائق تنهّد: «لم تمتدّ إليها يدٌ، كلّ شيءٍ فيها على حاله». ارتاح، وعادَ إلى فِراشه، حاول النّوم من جديد، لم يُفلِحْ، تناهَى إليه صوتُ بعضِ السّكارى في الشّارع الممتدّ أمام الفندق يتصايَحون، شَمّ رائحة الخمر تفوح من أفواههم، عَبَرَتِ الرّائحة الشّارع من ضِفتّه البعيدة إلى الضّفة القريبة حيثُ مدخل الفندق، وصعدت الدّرجات مثل الرّوح، ضبابيةً خفيفة، كان يراها بأنفه، ثُمّ مخرت ذلك الأنف، وأعادَتْه إلى زمنٍ سحيق، لَعَنَهم هم الآخرين، ولكنّ لَعَناتِه المُتتابعات لم تجلبْ له لحظَة نومٍ واحدة، وارحَ يتقلّب، وهو يمسح العرقَ المُتصبّب عن جبينه بطرف شرشف السرير القَذِر، شمّ رائحة بولٍ من جديد. كيفَ ينام؟!

نهضَ من فِراشِه في السّادسة صباحًا، لم تكنْ عيناه قد ذاقتَا طعمَ النّوم لحظة، نزلَ عند (أبو ياسين الفوّال)، كان يبيعُ الفول على عربةٍ مطليّة بالأخضر، يظهر من خلفها بجثّته الضّخمة ورأسه الكبيرة، ولا يكاد يُرى منه إلا نصف صدره من خلف العربة لِقِصَره، قِدْرُ الفول في الصّباح يغلي، تنبعثُ منه أدخنة الطّبخ، تصلُ روائحه إلى آخر الشّارع الّذي لا ينتهي، قال له الفَوّال وهو يدفع له صحنَ الفول المعتاد، ويسحبُ بإبهامه (مُغّيط) الجنّادات الّتي تُمسك بنطاله العريض: «النّهار اليوم قائظ، والحرارة ستشتدّ بعد قليل، لن تمشي اليومَ كثيرًا؟». رمقَه بعينَين ذابلتَين، وأخذَ صحنه، وأدارَ له ظَهره، قال له وهو مُولٍّ: «الحساب؟». عادَ وركزَ له نصفَ دينارٍ معدنيّ على القائمة اليُمنى للطّاولة. قوائم العربة الّتي تحمل المظلّة مطليّة بالأحمر، اللّون المُثير

بالنّسبة له. مشى إلى المخبز، ثلاث خُطوات، وأحسّ بلهب النّار الخارج من الفرن، ورائحة الخبز النّاضج، الرّوائح عنده لا تختلط، يستطيع أنْ يميّزها، ويُحسّ بها كاملةً دون أنْ يشعر بارتباك فيها أو تداخل؛ في خياشيمه ألفُ ألفِ حسّاس، لكلّ رائحة منفذٌ منها لا يجور على سواه. اشترى رغيفًا ساخِنًا من المخبز بعشرة قروش، ثُمّ جلسَ على مقعدٍ حجريّ مُتهالك تظهر منه قُضبان الحديد خلفَ الإسمنت، وراحَ يأكل بشهيّة، تلمّظَ، وهو يلعقُ اللّقمة الأخيرة في صحنه، وعبرتْه موجةُ سعادةٍ غريبة؛ لأوّل مرّةٍ ربّما من سنةٍ يأكل بهذه الشّهيّة. أشعل سيجارتَه، ومضى نحو كشك القهوة، توقّعه (سُمعة القهوجي)، كان قد بدأ بالفعل بإعداد كوبه من القهوة؛ أوقدَ تحتها النّار، ذابتْ، علتْ حرارتُها بعدَ الذّوبان، لم تحتملْ حَرَّ ما أُوقِدتْ من أجله فَغَلتْ، ثُمّ فارتْ، ثُمّ سالتْ وشالتْ، ثُمّ اندلقَ بعضُها على الجوانب فأحدثَ نشيشُها صوتًا موسيقيًّا، اختلطتْ بالنّار فازداد لهيبُها، شَمّ رائحتها الأسطوريّة فسرى في رُوحه الخَدَر، تذكّر ما كان يقوله له الشّيخ عنها: «إنّها خمرة الصّالحين» فتبسّم. رفع سمعة الرّكوة النُّحاسيّة ذات اليد الخشبيّة مسافةً عالية، وسكب القهوة في الكوب باحتِراف، ومدّه إلى صاحبه، عَدّ النّقود المتبقّية معه، إنّها قليلة، ولكنّها تكفيه يومَين أو ثلاثة، وماذا يريدُ أكثَر من ذلك؟ تناولَ قهوته بتلذّذٍ آخَر مع سيجارته، ومشى. مشى في الشّارع الممتدّ أمام الفندق، كان النّاس يستيقظون، والشّارع بدأ يمتلِئ بسيّارات الأجرة الّتي بدأ الموظّفون يحشرون أنفسهم فيها ذاهبين إلى أعمالهم، وأصواتُ بعضِ الباعة راحَ يملأ المكان. وهو؟ ليسَ لديه وظيفة، بالأحرى، كانتْ لديه وظيفة، في

الحقيقة كانتْ لديه وظائف كثيرة، لكنّه اليوم عاطلٌ تمامًا عن العمل، وماذا ينفع تذكّر الماضي إذا كانت هذه الذّكريات تثقب القلب، لكنْ ماذا إذا كان القلب قد انخرق لكثرة ما فيه من ثقوب، وصارت الدّماء ترشح من كلّ خَرْقٍ فيه، لن يهمّه الدّم، القلبُ الّذي لم يعدْ موجودًا لم يعدْ مؤلِمًا نزيفُه، كثرةُ النّزيف تُهوّن القَرْح. تنهّد وهو يتذكّر تلك الأيّام، ونفضَ رأسَه لكي يتخلّص من شريط الذّكريات، إنّه لا يُريدُ أحزانًا جديدة، وما فائدة اجترار البؤس، إذا كان هذا البؤس رفيقًا دائمًا، وصديقًا مُخلِصًا؟! ومشى. مشى من دون غاية، ولا هدف. الشّارع طويل، وبإمكانه أنْ يظلّ ماشيًا حتّى تكلّ قدَمَاه، أو تحرقه الشّمس، أو يذبحه العطش، والوقت؟ ليسَ له أيّ قيمة، ليسَ هناك من أحدٍ ينتظره، لا زوجة، لا أبناء، لا وظيفة، لا أصدقاء، لا أهل، حتّى أمّه الّتي كانتْ نقطةَ الضّوء الوحيدة في حياته، ماتت، ماتت وهو في أشدّ أزماته، كأنّ الأقدار كانتْ تريدُ له أنْ تلسعه بسوطها في الوقتِ الّذي كان هو في أمسّ الحاجة إليها. ولِذا، فليظلّ ماشِيًا حتّى يجدَ لهذه الطّريق نهاية؟ ولكنْ لماذا تطول النّهايات إلى هذا الحدّ الّذي يبدو أنّه لا نهاية لها؟!

عشرُ سنواتٍ مرّتْ على ذلك اليوم، اليوم الّذي خَسِرَ فيه زوجته الأولى، ما زال إلى اليوم يعتبرها أفدح خساراته وأكبر خيباته، مع أنّه لا يُمكن عَدّ قطرات المُحيط، كانتْ خيباته أكبر من ذلك.

حينَ وُلِد سمّاه أبوه (ماركس)، كان أبوه سِكّيرًا، لا يكاد يصحو من الشُّرْب، درسَ في (روسيا) أيّام ما كانت الدّولة تبتعث الفقراء إليها ليدرسوا بالمَجّان، وأُعجِبَ بالفكر الشّيوعيّ، وبشخصيّة (ماركس) فأراد لابنه أنْ يكون عظيمًا مثل مُلهِمه هذا، لكنّ أمّه الّتي بكتْ كثيرًا،

وانتظرتْه أكثر أصرّتْ أنْ تُسمّيه (صالح) على اسم أخيها الكبير الّذي كانتْ تُحبّه وكان يعرف الله أكثر مِمّا يعرفُ النّاس، ولكنّ أباه هدّدها بالطّلاق إنْ هِيَ أصرّتْ على ذلك، لم تتراجع الأمّ بسهولة، فاحتكموا إلى مختار القرية، ولم يتوصّلا إلى اتّفاق، إلى أنْ قال لهما: «يجب أنْ نُلغِيَ الاسمَين حتّى نُلغي الخلاف الّذي بينكما، يُمكن أنْ تُسمّوه (نديم)، فالنّديم يُمكن أنْ يكون معناه المُنادِم على الشُّرب، وبهذا نُرضي الأب، ويمكن أنْ يكون مثل الشّيخ العلاّمة (نديم الملاّح) وبهذا نُرضِي الأمّ». ووافق الطّرفان على مَضض، ومَضَوا فسجّلوه في شهادة الميلاد بهذا الاسم، وإنْ ظلّ الأب يناديه (ماركس) ويُفخّم اسمه ويُمطّه إغاظةً لأمّه، وبقيت الأمّ تناديه (صالح) في السّرّ، وفي الأوقات الّتي يكون فيها أبوه غائبًا.

حينَ صار عمره سنتَين، تلا أبوه عليه البيان الشّيوعيّ الأوّل، وقال له: «هذه مبادِئكَ في الحياة؛ فحذارِ أنْ تحيدَ عنها». وأخذتْه أمّه في أحضانها ذلك المساء، وتلتْ عليه ما تيسّر من سورة (يس) لكي تُطهّره من الرّجس الّذي بَصَقَه أبوهُ في وجهه.

حينَ صار عمره ستّ سنوات، كان أبوه قد بدأ يهوي في وادي المرض المُظلم بسبب إدمانه على الخمر، أدمنَ أبوهُ كذلك على أفلام (الكاوبوي) وأفلام الغرب الأمريكيّ، وكان يُمكن أنْ تسمع صيحاتهما الحماسيّة معًا وهما يشاهِدان في الفلم مبارَزَة بالمُسدّسات، أو لعبة الموت، حينَ يُدير رجل الكاوبوي طاحونة المُسدّس الّتي تحمل رصاصةً واحدةً، ثُمّ يصكّها بقوّة داخل بوتقتها، فلا يدري إلاّ القدر أين تكمن الرّصاصة، ثُمّ يضع المُسدّس على رأسه، ويضغط على الزّناد، كانتْ لعبةً

عبثيّة، وكانتْ أنفاسهما وأنفاس اللاّعبين في الشّاشة تنقطع انتظارًا لِما سيحدث بعدَ أنْ يضغطَ الكاوبوي على الزّناد، هل ستكون الرّصاصة في بيت النّار، فتنطلق من الفوهة فتهشّم رأسَه ويسيل دماغه من تحت قُبّعته أمْ ينجو؟ وكان كلاهما يُصاب بخيبة أمل، إذا لم يُدوّ صوتُ الطّلقة فيبعث باللاّعب إلى الجحيم في لحظة. وما قيمة هذه اللّعبة الرّائعة إذا لم تنطلق الرّصاصة؟! وما قيمة الفوز إذا نجا الاثنان ولم يمتْ أحدُهما؟! أمّا الخيول الّتي كانتْ تركضُ في الحقول، فكان قلباهما يركضُ معها، وأنفاسُهما تلهثُ للهاثها، وكم هوتْ تلك الخيول في الحُفر، أو انفجرتْ بها الألغام، أو حزَتْ عنقها أسلاكٌ شائكة، أو عثرتْ فرمتْ بالفارس من فوقها فاندقّ عنقه، كان الموت الّذي يبعثُه جُمُوح الخيل يُصيبهما بالنّشوة؛ وكانا ينتظران طويلاً، ربّما الفيلم إلى آخره حتّى يحظيا بتلك النّشوة العارمة!

أمّا في الصّيف فكانتْ أمّه، الّتي ظلّتْ دموعها تسيل في داخلها على ما ترى من أبيه، تأخذه إلى الشّيخ ليتعلّم القرآن، وكان إذا جلسَ متربّعًا أمام الشّيخ تظلّ رُكَبُه تهتزّ كجناحَي ذُبابة. فإذا تعب، راح جذعه يهتزّ يمنةً ويسرةً. فإذا تعب، راح صدره يعلو ويهبطُ، وهو يترنّم بالقرآن يتلوه، كأنّه موسيقى تهتزّ له جوارحه، حَفِظَ البقرة في أسبوع، ويومَ أنْ حفِظَها ظنّ الشّيخ أنّه أمام أسطورة، فقام وقبّله، وقال له: «أنتَ ذكيّ جدًّا، إنّكَ تحفظُ كما لو كنتَ تقرأ». وكان هو يبتسمُ ابتِسامةً خفيفةً لا يظهر من خلفها أيّ شيءٍ من أسنانه. ثُمّ لّما أنْ حفظ نصفَ القرآن في ثلاثة شهور، قال له الشّيخ: «أنتَ حبرُ هذه الأمّة في هذا الزّمان، وسأُسمّيك ابن عبّاس». وطلبَ من أمّه أنْ تبعثَ به إليه بعد المدرسة

كُلَّ يوم، وواظب التّلميذ الاستثنائيّ على الحضور إلى المسجد في الوقت المُحدّد تمامًا، وجُنّ به الشّيخ، فراح يُعلّمه التّفسير، وقرأ عليه تفسير القرطبيّ، فكان الصّبيّ يحفظُ ما يقرأ منه، وما يسمع. ولم يُصدّق الشّيخ أنّه أمام طفل، وتركَه ذاتَ مرّة وحده في المسجد، وراح يركضُ في الشّارع واضعًا يديه فوقَ عِمامته، لا يدري ما يفعل، ولا يدري من أينَ هبطَ الله بهذا العقل إلى البشر. ولمّا تعبَ الشّيخ، عادَ إليه، فوجده يستظهر ما بقي له من الجزء الأوّل من تفسير القرطبيّ. فاشترى طبقًا كامِلاً من الحلوى ووزّعه على النّاس، وصارَ كلّما أتمّ الصّبيّ جزءًا من القرآن، ابتدر إلى الدُّكّان فاشترى تللك الحلوى، وبدأ بالصّبيّ: «أنتَ أولى النّاس بالتّهنئة»، ثُمّ يطوفُ بها على بقيّة روّاد المسجد أو المارّة في الشّارع.

بعدَ سنةٍ، كان الصّبيّ قد حفظ القرآن كامِلاً، وبعدَ سنةٍ أخرى كان قد حفظَ عددًا من التّفاسير، واستوقفَ الشّيخَ أكثرَ من مرّةٍ عندَ الأرقام الّتي تنتشر في القرآن، انتشار ورود الرّبيع في السّهل الفسيح، وسأله: «لماذا (يحمل عرشَ ربّك فوقَهم يومئذٍ ثمانية؟)، لِمَ لم يكونوا عشرة، لماذا هذا الرّقم بالذّات، وسأله: لماذا (بعثْنا منهم اثنَي عشر نقيبًا) لِمَ لمْ يكونوا عشرين؟ وسأله: لماذا (اختار موسى قومَه سبعينَ رجلاً) لِمَ لمْ يكونوا ثمانين؟، وسأله: لماذا (يومًا عندَ ربّك كألفِ سنةٍ مِمّا تعدّون)؟ لِمَ لمْ يكنْ كعشرة آلاف سنة؟ وسأله: لماذا (عليها تسعةَ عشر) لِمَ لمْ يكونوا خمسةَ عشرَ؟ وسأله لماذا (آيتُكَ ألاّ تُكلم النّاسَ ثلاثةَ أيّام إلاّ رمزًا) أفلا تكون الآية في أسبوعٍ أو يوم أو أكثرَ أو أقلّ؟ لِماذا هذه الأَرقامُ بالذّات؟!». ولم يجد الشّيخُ جوابًا شافِيًا يُجيبُ به عن أسئلته الّتي لم يتركْ فيها الصّبيّ رقمًا

في القرآن إلاّ سأل عنه، وكان يكتفي بالابتِسام أحيانًا، وبهزّ رأسه أو حكّ طربوشه أحيانًا أخرى. وجمَعَ له الشّيخ أهل القرية، وأهل العِلم، والرّجال، والنّساء، والصّبيان، والجواري، وقال لأمّه: «هذا نابغة، وأنا أخاف عليه. سنقيم له حفلة، ولا بُدّ أنْ نرفعَ أمره إلى الدّولة، إنّه عقلٌ جَبّار». وفي الحفلة تلك، قرأ على الشّيخ محفوظه من كتاب الله، وكان يختار له المواضع من القرآن، ليُثبتَ للحاضرين وخاصّة أهل العلم أنّهم أمام نابغةٍ من نوعٍ لا يُمكن أنْ يتكرّر، وكان إذا بدأ الصّبيّ بالآية لا يتوقّف حتّى يُوقِفه الشّيخ، ثُمّ إنّ عقله كان يُعدّد له الكلمات المُتشابهة في القرآن، فيُحصيها له عددًا، ثُمّ يُبيّن له في أيّ السّور وردت، وأيّ الآيات، وأرقامها، ثُمّ يذهب إلى ما كان اشتقاقًا منها فيذكره، وأهل العِلم ذاهِلون، وعيونهم شاخصةٌ مُعلّقةٌ به لا تكاد تطرف، وكان يقول له: «ما تقول يا ابن عبّاس في قوله تعالى...». فيسأله الصّبيّ: «أقول أنا أم يقول القرطبيّ أم يقول الطّبريّ أم يقول ابنُ كثير...؟» فيُوقفه الشّيخ من تدفّق الكلام على لسانه، ويسأله: «بل ما تقول أنت؟». فيشرحُ ما أرادَ له العِلم. وكانتْ أمّه بعدَ كلّ جملةٍ تكاد تفزّ من مجلسها لتحتضنه، وكانتْ دموعها تسيل حارّة على خَدّيها فرحًا، وأمّا أبوه فكان يبصقُ على الأرضِ طَوال الوقت.

ولمّا انتهى الحفل، قال له أبوه: «كلّ ما علّمه لكَ الشّيخ هُراء... كلّ ما حفظْتَه مهزلة، اتْبَعْني تعرف العلم الصّحيح، والأيّام بيني وبين أمّكَ الفاجرة، ستُثبتُ لكَ أيُّنا على حَقّ!».

ظلّ قلبُه مع أبيه وإنْ لم يكرهْ أمّه، لكنّه كان يراها كما يراها أبوه؛ ساذجة، غريبة الأطوار، تُؤمن بالخرافات، وتواظب على عددٍ من

الصّلوات الغريبة. وتبع أباه لمّا صار في الثّانية عشرة، فكان أبوه يُمسكُ ديوان أبي نواس، فيقرأ عليه:

دَعْ لباكِيها الدّيـــارَا

وَانْفِ بالخَمْرِ الخُمارا

ثُمّ يكرع من الكأسِ خمرته، ويتمايل، وهو يقرأ البيت الثّاني:

وَاشْرَبَنْها مِنْ كُمَيتٍ

تَدَعُ اللّيلَ نَهـــارا

ثُمّ يقول لابنه: «هاتِ كأسًا أسكبُ لك من هذا الشّراب يا بُنيّ، فإنّكَ لن تشعر بطعم هذه القصيدة إلاّ إذا شربت». ويحدّق الولد في عينَي أبيه الحمراوَين، وأوداجه المنتفخة، ويصرخ فيه أبوه: «ألم تسمعْني؟ هاتِ كأسًا». ويقفز الولدُ من موضعه، ويأتي بالكأس، ويسكبُ له أبوه، ويشرب الولد، ويتقيّأ، ثُمّ يسكبُ له أبوه مرّة أخرى: «اشربْ فإنّ الخمرة لا تُحبّ مَنْ لا يُحبّها، واتلُ معي سِفْرَ مَنْ خلّدها؛ هل حفظتَ هذه القصيدة يا ماركس؟». فيجيبه ابنُه: «لقد حفظتُ ديوانَ أبي نواسٍ كلّه يا أبي». «فكيفَ وجدْتَه؟». «لا أدري، عليّ أنْ أعرفَ مَنْ مدح الخمر قبله أو بعده حتّى أقرّر». ويسكبُ له أبوه كأسًا عاشرة: «اشربْ، فإنّ المال إنْ لم نُتلِفه في هذه الصّهباء، فأيّ شيءٍ يستحقّ هذا الكرمَ سِواها؟!». «وهل خمرُنا وخمر أبي نواس واحدةٌ يا أبي؟». «هي كذلك». «كذبتَ يا أبي، الخمر في الكأس غير الخمر في الرأس». ويكسر أبوه الكأس الّتي في يده، ويصرخ بابنه: «وماذا تعرفُ أنتَ من الخمر؟».

ويتلو عليه، قول حَسّان:

كأنّ سبيئةً من بيتِ رأسٍ

يكون مِزاجَها عسلٌ وماءُ

فيردّ الابن: «فاذهبْ بِنا إلى بيتِ رأس حتّى نستطيع الحُكم»، فيصرخ الأب، وهو يهتزّ كساق شجرة طريّة عبثتْ بها الرّيح:

لّما صَحَا وَتَراخَى العيشُ قلتُ لهُ

إنّ الحياةَ، وإنّ الموْتَ مِثلانِ

فَاشْربْ مِنَ الخَمْرِ ما آتاكَ مَشْرَبُهُ

واعلمْ بأنْ كلُّ عيشٍ صالحٍ فانِ

فيسأله ابنُه: «أهو هو؟». فيُجيبه الأب: «هو هو، ولو شِئتُ لأنشدْتُكَ المِئين من الأبيات في حُبّها، ولطلع النّهار من بعدِ النّهار، وغاب اللّيل من بعد اللّيل وأنا أتلوها عليك. لكنْ دونكَ المكتبة، فاحفظْ شِعْر الخمر، فإنّه أدَعى إلى المروءة والكرم، ألم تسمع التّغلبيّ حينَ قال:

تَرَى اللَّحِزَ الشّحيحَ إذا أُمِرّتْ

يكونُ لمالِهِ فيها مُهينا؟».

ولم يَلِجِ الولدُ عامَه الرّابع عشر حتّى كان يحفظ ديوان امرئ القيس والمُعلّقات وديوان المتنبي والبحتري وأبي تمام وأبي نواس وأبي العتاهية، والبيان الشيوعي، وألفيّة ابن مالك، والقرآن الكريم، وتاريخ ابن الأثير، ومحاورات أفلاطون، والإشارات الإلهيّة للتّوحيديّ، وعددًا من التّفاسير، وعددًا آخر لا يُحصَى من الكتب والنّصوص.

شكّل هذا كلّه تعبًا من نوعٍ لذيذ، كان يرى نفسَه مختلفًا عن الآخَرين، وكان تفوّقه هذا مدعاةً لحسد الأولاد في المدرسة، فكانوا يقولون: «نديم حافظ ومش فاهم، إنّه غريب». وكانوا إذا رأوه مُقبِلاً من بعيدٍ مُتعثّرًا في مشيته، يترنّح، تهامَسوا فيما بينهم: «جاء حافظ... جاء حافظ». ويتصنّعون الجِدّية، قبل أنْ ينعتوه حينما يمرّ بجانبهم ببعضِ النّعوتِ القبيحة، أو يشتمونه ببعض الشّتائم، وكان يرى أنّهم أسخف المخلوقات الّتي تدبّ على الأرض، ولم يشعر تُجاههم في حياته بالمُنافسة ولو مرّة واحدة، فقد كان يشعر أنّه يحلّق بعيدًا في سماواتٍ زرقاء لا حدود لها، وأنّهم ليسوا أكثر من نملٍ مُصابٍ بالرّعدة لمجرّد أنْ يروه. وتكرّرت هذه العبارة المتوجّسة: «جاء حافظ... جاء حافظ» كثيرًا، فكان الأولاد ينادونه به حين يرونه، وحلّ هذا الاسم (حافظ) تدريجيًّا في المدرسة محلّ (نديم)، وأُضِيفَ إلى قائمة الأسماء الطّويلة الّتي يحملها!

***

(٢)
مَنْ يَسْتَبدِلُ العاجِلَ بالآجِلِ؟!!

جدّه لأبيه لقيطٌ، وَجَدَه أحد المُصلّين في المسجد القديم أمام الباب، فصاح: «طفل أيّها الإخوة، رضيع، مَنْ يتكفّله؟». ومطّ المُصلّون الخارجون للتّوّ من صلاة الفجر شِفاههم، واستعاذوا بالله من الشّيطان الرّجيم، ولعنوا الزّانية وابنها، وهتفَ أكثرهم: «إلى جهنّم وبِئس المصير» قبل أنْ يَمضُوا إلى أعمالهم، انتظر كثيرًا قبل أنْ يفرغَ المسجد من كلّ أحدٍ، ويُضطرّ هو إلى حَمْلِه إلى البيت. قالتْ له زوجته: «ابن حرام، ما شأنُنا به؟» فردّ: «نربّيه لوجه الله». ردّتْ عليه وهي تزعق: «والقطط العشرة الّتي بزرتُها لك في شَبَقِك الجنسيّ؟!». بكى الرّضيع، فرقّ قلبُ المرأة، وسكتت، أعطتْ زوجَها ظهرها، وقالت: «ضَعْه إلى جانب أخيه الرّضيع الآخَر في السّرير نفسه. من حظّه أنّ ثديي ما زال مُمتلئًا».

لكنّه لا يذكر من جدّه شيئًا، إلاّ ما كان يُحدّثه به أبوه عنه لِمامًا: «كان يبيع العنب في فلسطين، يقطع الوديان، ويعبر الصّحارى، ويصعدُ الجِبال، وينام مع الذّئاب، ويُنشِدُ الأشعار، ويُحادث المخلوقات الّتي لا تُرى، وكان يُصاحب الجنّ في الطّريق ليأمن شرّهم، وكان يغيبُ عن أمّي كثيرًا، حتّى تظنّ أنّه مات، وحينَ يعود، يكون قد اشترى لها إسورةً من الذّهب، وحينَ تلبسُها فَرِحةً، تسأله ونظرات الشّكّ في عينَيها تخترقه: أَمِنْ بَيْعِ العنب؟». لكنْ لا أحدَ يدري، وذلك أمرٌ مضى منذ

عهدٍ بعيد، ومَنْ يستطيع أنْ يسألَ الموتى عن ذنوبهم، وقد أكل الدّود من عيونهم، وأبلى رِقّة جلودهم؟!

كان يمشي، الطّريق طويلة، النّاس جُثثٌ مُحنّطة تسير بأربطتها المُهترئة في الشّارع، البنايات كُتلةٌ باردةٌ من اللّون الأزرق. والأصواتُ قيءٌ لوحوشٍ أسطوريّة. والرّوائح مومِساتٌ تطلبُ جنسًا رخيصًا. والسّيّارات دِبَبة لزجة تنزلق في الإسفلت. ومشى.

صارتِ السّاحة الّتي تُطلّ على المدرّج الرّومانيّ عن يمينه، رأى بعضَ السُّيّاح الأجانب، كانوا يبدون فرحين، إحداهنّ سألتْ صديقَها بالفرنسية: «هل مرّ يوليوس قيصر من هنا؟». أجابَها صديقُها مُتعجّبًا: «لقد توفّي قبل أنْ يُبنى المدرّج، لعلّك تقصدين مادريانوس؟». توقّف ينظر إلى التّاريخ الماثل أمامه في الحجارة، كانت الحجارة تنطق، مرّ سيّاحٌ كثيرون من جانبه وهو صامتٌ ساكنٌ لا يتحرّك، لم يرهم وإنْ سمعَ أصواتَهم، تحدّثتْ بجانبه أفواهٌ بالإنجليزيّة وأخرى بالألمانيّة والإسبانيّة والإيطاليّة وحتّى الهنديّة، وكان يعرفُ اللّغات كلّها، مزّقتْه الظّنون: «حتّى في موتهم جاؤوا بالأحياء إلى هنا». تركَ القهوة الّتي ما تزال في يده، وضعها في إحدى السّلاّت، وتوجّه عبر السّاحة الفسيحة الممتدّة أمام المدرّج إلى حيثُ المسرح، في السّاحة تخيّل أنّ أقوامًا قبل الرّومان عبروها، ربّما عاشوا هنا منذ ثلاثة آلاف سنة، رآهم، سمع أحاديثهم، وساءَه أنّهم كانوا يتحدّثون عن إصلاح التّعليم، سَمِعَ أحدهم يقول: «أولاد هذا الزّمان تافِهون، إنّهم مهتمّون بملاعبة الخيل ومغازلة النّساء عن الفلسفة». منذ زمنٍ فقدَ أنواعًا كثيرةً من اللّذّة، ماتت مواطن الشّعور بها أو نامت، هل تنام اللّذّة؟! سمع سيبويه وهو يُحتَضَر حينَ

سأله أخوه: «ما تشتهي؟»، فردّ عليه: «أشتهي أنْ أشتهي!!». وها هو يشتهي أنْ يشتهي. يشتهي أنْ يعرف، يشتهي أنْ يُدرك، يشتهي أنْ يشعر، ويشتهي أنْ يقول... جلس على أوّل حجر في الصّفّ الأوّل من مقاعد الجمهور في المدرّج، نظر إلى المسرح الحجريّ العتيق، كان خالِيًا إلاّ من بعض السُّيّاح، سرحَ بخياله بعيدًا، بدأ عددٌ من الممثّلين الإغريق يصعدون المسرح، في الأسفل رأى جوقةً من الموسيقيّين تعزفُ لحنًا حزينًا، انتفضَ له، نفضَ رأسه، يُدركُ تمامًا أنّ هذا غير ممكن، فالّذين ماتوا قبل أكثر من ألفي عامٍ لا يُمكن أنْ يخرجوا من قبورهم ليُعِيدوا تمثيل مسرحية (أوديب) لسوفوكليس، لكنّه يراهم، هل بعدَ الرّؤية برهان؟! هل يكون البصرُ خادِعًا إلى هذا الحدّ؟! الممثّلون في الفصل الأخير من المسرحيّة أتمّوا صُعودهم إلى المسرح، بدأ يسمعُ أصواتَهم، نقيّة واضحة، تتردّد في جَنَبات المدرّج، اختلطَ لِباسُ الممثّلين الإغريقيّ بلباس أهل الحاضرة من الأوروبّيّين، لكنّه لم يسمع غير صوت الممثّلين، باللغة الإغريقيّة القديمة، إنّه يعرفها كذلك، لا لأنّه تعلّمها، لا يدري كيف، ليس هناك من سبب معقول، لكنّه يسمعها ويفهمها! رأى (أوديب) وهو يفقأ عينَيه، فتسيلان على خدّه، وهو يصرخ: «ستظلاّن في الظُّلمة فلا تَرَيان مَن كان يجب ألاّ ترياه، ولا تعرفان مَن لا أريد أن أعرف بعد اليوم، حتى لا ترى الشمس المُقدّسة إنسانًا دَنِسًا فَعَلَ أكثرَ الجرائم بشاعة». قام وركضَ نحو المسرح، تجاوز جوقة العازفين، وقفز إلى الأعلى، وأمسكَ بكتفَي أوديب: «اخرسْ... اخرسْ أيّها الكلب، لن أعيشَ في الظّلمة، ولستُ مجرمًا، هؤلاء...» وأشار إلى الحجارة، فرأى الجمهور الإغريقيّ يصرخ فيه: «انزل أيّها البائس.. تَنَحَّ أيّها اللّعين».

وآخرون يتصايحون: «من أين جاء هذا المجنون؟». وركضَ إليه حَرَس المسرح، مُشهرين سُيوفَهم، فأرخى ساقَيه للرّيح، وركضَ خارجًا، وهو يلعنُ الكذب الّذي غَطّى العالَم، وركضَ، حتّى تجاوز ساحة الفورم، وصار في الشّارع مرّة أخرى، التقطَ أنفاسَه من لُهاثَه، وأعادَتْه أبواقُ السّيّارات إلى الواقع، شَتَمه سائقٌ كادَ أنْ يدهسه وهو يعبر الشّارع: «انتبه أيّها المتسوّل، هل أنتَ أعمى؟». وعادَ إلى الرّصيف، ومشى.

ظلّ يمشي، كان يصطدم بالأعمدة والنّاس، هل هو بالفعل أعمى؟ إنّه لا يراها، ولكنّه يشعر بألم الاصطِدام، والنّاس تنظر إليه مرّةً وهي تُشفق على هيئته الرّثّة، ومرّة وهي تقول: «مجنون!». وآخرون: «سِكّير». «ملعون». «يتحرّش بالأطفال». «لا بُدّ أنْ نُخبر الشّرطة». «إنّ هذا الرّجل وقح». لكنّه لم يكنْ يسمعهم، كانتْ أُذناه تلتقطان أصواتًا أخرى، أصواتًا قادمةً من جُبّ سحيق، من ماضٍ بعيد، ومن أناسٍ ماتوا قبل آلاف السّنين.

وصل إلى موقف الحافِلات الكبيرة، كان الموقف شاسِعًا يمتدّ على مساحةٍ واسعة، يعجّ بالنّاس، بالخيالات المتحرّكة، فكّر في أنْ يركض دون أنْ يتوقّف، ركضَ بالفعل، ركضَ باتّجاه حافلةٍ تهمّ بالانِطلاق، اصطدمَ بمقدّمتها بقوّة، وسَقَطَ على الأرض، رأى شيئًا ما من جسده يهوي مثل حجرٍ في بِئرٍ مظلمة، صرخ: «سيُغمَى عَلَيّ». ركضَ إليه عددٌ من السّائقين، وعندما عاينوه عرفوه: «إنّه يأتي كلّ يومٍ إلى هذا المكان ويرمي نفسه على مقدّمة الحافِلات».

شحطوه مثل كلبٍ أجرب، وجرّوه إلى الرّصيف، هتفَ أحدهم: «ابن الحرام لا يكفّ عن فعلته هذه، إنّه يريدُ أنْ يحصل على بعضِ

المال». أشفقَ عليه أحدُ المارّة، قدّم له زجاجةً من الماء، كرعها دفعةً واحدة، وقامَ يمشي.

تخلّى عن فكرة الرّكض، ومضى عبر الشّارع الطّويل جِدًّا، وصل إلى انحناءةٍ من انحناءاته البعيدة، كانت السّيّارات قد تفرّقت في الطّرق الفرعيّة، قبلَ أنْ يصل إلى هذه الانحناءة فقلّ عددُها، الضّجيج هدأ، ورأسُه هدأتْ، والأفكار فيها انسحبتْ إلى قعر دماغه، ووجدتْ هناك ملاذًا ولو مؤقّتًا للكُمون. تابعَ سيرَه، صار يرى قناة الماء عن يمينه، نُهَيرٌ صغير، في قاع هذا الوادي تتجمّع فيه المياه القذرة وبقايا مياه الشّتاء الفائت، أشجار الصّفصاف الّتي تنتشر بكثرةٍ على ضفّته البعيدة عن الشّارع أعطَتْه شعورًا بالرّاحة، نظر إلى الماء ذي اللّون الأخضر الدّاكن ينساب في القناة، فهمّ بأنْ يغطسَ فيه، أنْ يرمي نفسَه من هذا المكان إلى هناك، لعلّه ينعم ببعضِ البرودة، جسدهُ يشتعل، أعوامه تشتعل، وكلّ شيءٍ فيه يُنذِر بنارٍ لن تنطفِئ. لكنّه فكّر أنّ ذلك سوفَ يجعل الحيتان تخرج فتبتلعه، وهتف: «لن أكونَ صيدًا سَهْلاً».

حدّق في الماء من جديدٍ، وتذكّر ذلك اليوم البعيد، حينَ كان يسبح في بركةٍ في قريته تمتلئ بمياه السماء كلما أعطَى الشّتاء ظهرَه للجِبال البعيدة، كانتِ السّباحة متعته الأولى، يتذكّر أولاد المدرسة الّذين كانوا يسبحون معه، كان يراهم طُفيليّات، حيوانات ناطِقة، ومجموعة من البُلَهاء، وكان يتركهم يفرغون من سِباحتهم جالِسًا عارِيًا بالكامل على طرف البركة، خلقنا الله عُراةً فلماذا نتمرّد على ما خلق، بأنْ نُغطّي هذا الطّين المسنون؟! كان يجلسُ صامِتًا، عاقِدًا رُكبتَيه إلى صدره، بادِئًا باهتزازاتٍ خفيفة، ثُمّ تعلو رويدًا، حتّى يتحوّل جسده الضّئيل إلى كُتلةٍ